التغنى بالقرآن الكريم (١)

١ — تعرضنا بالاجمال فى مقال سابق لقراءة القرآن بالألحان ، مشيرين إلى أنها تنافى الاتعاظ به ، والاهتداء بهديه ، والاعتبار بقصصه ، وقلنا « ليست مذاكرة القرآن بما ابتدعنا فيها من ألحان نطرى بها الصوت ، وننغمه ، وتمايل الأعناق طربا للنغم ، وتتصايح الأصوات استطابة للحن ، والقارىء يترنم بنغمه ، ويهتز للحنه ، ولا يراعى معنى ، فيخفض صوته فى آيات الترهيب ، ويشتد فى آيات الترغيب ، يلين فى آيات القتال ، ويجلجل فى آيات السلام » .

وقد اتصل بنا بعض القراء فطلب إلينا بيانه ، فان هذا موضوع لا يغنى فيه الاجمال عن التفصيل ، ولا تقوم فيه الاشارة مقام العبارة ؛ وخصوصاً أن البلوى فيه عامة ، والبدعة فيه حسبها الناس سنة ، وتعلقوا بآثار واردة عن النبى صلى الله عليه وسلم تبيح التغنى بالقرآن وتزيينه بحسن الصوت ؛ فحق علينا أن نزيل الاشتباه ، ونبين الفرق بين ما كان يستحسنه الرسول الكريم، وما ابتدعه الناس من بعده ، معتمدين فى ذلك على المنقول والمعقول ، لا نتزيد على علم السلف ، ولا نسلك غير سبيلهم القويم .

٢ — فاننا لا نحارب البدعة ، إلا بما يثبت لدينا أنه السنة ، والسنة فى هذا المقام هى قراءة النبى صلى الله عليه وسلم للقرآن ، وقد جاء وصفها فى صحاح السنة ، والثابت من الآثار .

(١) نقلا عن مجلة « لواء الاسلام الغراء » .

فقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حزب من القرآن يقرؤه ، ولا يخل به ، وكانت قراءته ترتيلا ، لا هذاً[١] ولا عجلة ، بل قراءة مفسرة ، حرفاً ، حرفاً ، وكان يقطع قراءته ، آية ، آية ، وكان يمد عند حرف المد ، فيمد الرحمن ، ويمد الرحيم ، وكان يقرأ القرآن قائماً وقاعداً ومضطجعاً ومتوضئاً ومحدثاً ، وكان يترنم به ، ويرجع صوته به أحياناً ، كما رجع يوم الفتح فى قراءته « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » وكان يحب أن يسمع القرآن من غيره ، وقد أمر عبد الله بن مسعود مرة أن يقرأ عليه ؛ فلما سمعه عليه السلام خشع ، حتى ذرفت عيناه ، وقد استمع ليلة لقراءة أبى موسى الأشعرى من غير أن يعلمه ثم أخبره ، فقال رضى الله عنه : « لو كنت أعلم أنك تسمعه لحبرته لك تحبيراً[٢] » .

ولقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « زينوا القرآن بأصواتكم » وروى أنه قال : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » وقال عليه السلام : « ما أذن الله لشىء كأذنه لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن » .

٣ — فهذه الآثار كلها تدل على أنه عليه السلام أباح التغنى بالقرآن ، وأباح ترجيع الكلمات مترنماً بمعانيها مردداً لها بترديد ألفاظها ؛ كما يفعل الأديب عند ترديد بيت من الشعر أدرك معناه واستطابه ، فردده استحساناً له ، ولجودة التعبير وسلامته ؛ وكما فعل عليه السلام عند ترجيعه « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » فإن ترديد ذلك فى عام الفتح إنما هو من شكر المنعم به ؛ وهو استذكار للانتقال من الضعف إلى القوة ، ومن الفتنة فى الدين إلى جعل الكلمة العليا لدين رب العالمين .

وإذا كان الترجيع ليس إلا ترديداً للمعنى ، وتذوقاً له واستطابة ، واعتباراً

(١) الهذ : سرعة التقطع ، أى أنه لا يقرأ قراءة يسرع فى مقاطعها ، فلا يعطى الوقوف حقها ، ويفسر ذلك ما جاء بعد .

(٢) أى يحسن صوته تحسيناً .

به ، فكذا يكون التغنى الذى استحسنه النبى صلى الله عليه وسلم ؛ إذ أن العرب الذين كانوا يقرءون القرآن كانوا على علم بأساليب البيان ، ومعانى الفرقان ؛ فكانوا يترنمون بالألفاظ ترجيعاً لمعناها ، وتذوقاً لجمالها ؛ واستحساناً لأسلوبها .

وعلى ذلك يكون تحسين القراءة بالصوت الجميل ، الغرض منه أن يسهل على السامع فهم المعنى وتذوقه ، وإدراك جمال الأسلوب ، وجمال الألفاظ .

٤ — أما إذا كان التغنى بالقرآن لمجرد النغم من غير نظر إلى المعانى ، و من غير أن يدرك السامع جمال اللفظ وجمال الأسلوب ، بل يستطيب الألحان من غير تفرقة بين أن تكون الألحان فى ألفاظ التنزيل ، أو تكون فى شعر عربى فصيح أو أوزان عامية مستحدثة ، فذلك هو الذى لا نعتقد أن النبى صلى الله عليه وسلم أقره ؛ بل نؤمن بأنه نهى عنه، وتنبأ بوقوعه وحذر منه .

فقد روى الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الكتاب والفسق،فانه سيجىء بعدى أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم » .

ولقد ذكر الرسول صلوات الله وسلامه عليه « أن من علامات الساعة أن يتخذ القرآن مزامير يقدمون أحدهم (ليس بأقرئهم ، ولا أفضلهم) ليغنيهم غناء » .

فهذان الحديثان فيهما بيان أن قراءة القرآن بالألحان ليست من السنة فى شئ ، وهى غير التغنى الذى أباحه النبى صلى الله عليه وسلم واستحسنه ، وقد بين النبى صلى الله عليه وسلم الحد الفاصل بين التغنى المستحسن ، والتلحين المستهجن ، فى الحديث الأول ؛ فقد ذكر أن التغنى المستحسن هو الذى يجئ على لحون العرب ؛ ولحون العرب كانت تقوم على إخراج الحروف من مخارجها ، والمد فى موضع المد وهمز المهموز،ووصل الموصول ؛ ونحو ذلك من المبين فى علم التجويد ، فهذه ألحان

العرب ، وتحسينها هو بالصوت الجميل ، لا بتوقيع القرآن على موسيقى الأعاجم . والترنم به هو ترديد المعنى المفهوم فى اللفظ الجميل بحيث يكون الصوت مصوراً للمعنى أولا وبالذات،ولعل هذا هو التحبير الذى كان يتجه إليه أبو موسى الأشعري عند ما كان يريد تحبير قراءته .

٥ — لقد بين النبى إذاً الفرق بين التغني المقبول ، والتلحين المرذول ، وتنبأ بوحى من ربه بما يكون ، ثم لم يمض زمن طويل على انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، حتى ظهرت لحون الأعاجم ، فانه فى صدر الدولة الأموية قد ظهر الغناء الفارسى ، وأخذه العرب ، ولحنوا به أشعارهم،ثم سرت العدوى من الأشعار إلى القرآن ؛ فكان من القراء من يقرأ القرآن بهذه الألحان الأعجمية التى لا تتفق مع اللحن العربى ؛ وأدرك ذلك بعض الصحابة الذين عمروا إلى الدولة الأموية ، فانه يروى أن قارئا جاء إلى أنس بن مالك، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ وطرب ، فقال له صاحب الرسول عليه السلام : « ماهكذا كانوا يفعلون» واستنكر صنيع ذلك القارئ ، وعده بدعة .

٦ — ولذلك قال التابعون الذين سمعوا تلك الألحان الأعجمية ورأوها تذهب بالروعة القرآنية : إن القراءة بالألحان مكروهة ، وكلمة مكروهة يراد بها فى أكثر الأحوال عند هؤلاء التابعين التحريم ، ولكن لعدم النص الصريح بالتحريم لم يصرحوا به ، ومن هؤلاء سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، والقاسم بن محمد ، والحسن البصرى ، وابن سيرين ، وإبراهيم النخعى ، ثم جاءت الطبقة التى وليت التابعين من الفقهاء المحدثين ، فكان منهم كثيرون أفتوا بالكراهة ، ومن هؤلاء سفيان بن عيينة ، ومالك بن أنس . فقد روى ابن القاسم « أنه سئل الألحان فقال لاتعجبنى ، وإنما هو غناء يتغنون به ليأخذوا عليه الدراهم » ولقد جاء فى الطبقات لابن السبكى «أن الربيع بن سليمان الجيزي الأزدى المتوفى سنة ٢٥٧ روى عن الشافعى

رضى الله عنه أن قراءة القرآن بالألحان مكروهة » . ولقد تضافرت الروايات عن الامام أحمد رضى الله عنه أنه قال : « القراءة بالألحان بدعة لا تسمع » .

فهذه نقول كثيرة عن الأقدمين تبين أن التطريب بالقرآن من غير نظر إلى المعنى حرام أو مكروه أو بدعة ، ولعل الذين لم يفتوا بشىء من هذا لم تصخ أسماعهم قراءة بالألحان تبعد المعنى ، وما سمعوه من التغنى بالقرآن كان فى دائرة ألحان العرب التى استحسنها النبى صلى الله عليه وسلم ، وأجازها ، ولم تكن من ألحان الأعاجم التى تهوش المعانى فى نفوس السامعين .

٧ — والذى يستخلص من مجموع النقول ، وهو الذى يتلاقى فيه المختلفون ، أن التغنى بالقرآن قسمان : (أحدهما) يساعد على المقصود من التلاوة وهو العظة والاعتبار ، وفهم معانيه ، وتدبر آياته ، وتذوق جمال لفظه ، وطلاوة أسلوبه ، وحلاوة بلاغه . وهذا مستحسن مطلوب . ومن ذلك مايروى عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول لأبى موسى الأشعرى: ذكرنا ربنا، فيقرأ أبو موسى ويتلاحن . ومن ذلك أيضاً ماروى من أن عمر رضى الله عنه قال لعقبة بن عامر وكان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن : اعرض علي سورة كذا، فعرض عليه، فبكى عمر ، وقال « ما كنت أظن أنها نزلت » .

وهذا القسم هو الذى يكون المعنى فيه واضحاً جليا ، ويزيده حسن الصوت والالقاء جلاء ووضوحاً، وسماعه يزيد المؤمن إيماناً كما قال تعالى فى وصف المؤمنين « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون » .

أما القسم الثانى فهو الذى يكون التوقيع الموسيقى غير متناسب مع المعنى، أو يكون الغرض من التلاوة مجرد التطريب ، والغرض من السماع مجرد الطرب ، أو يكون الترجيع للتنويع فى الموسيقى ، أو تستمار القراءات ولو لم تكن شاذة لتنويع الموسيقى ، فيكون السامع فى جو من الطرب لا فى مقام اهتداء واتعاظ واستبصار .

وهذا صالح لأن يتخذ تسلية ، لا أن يكون تبصرة . وما لهذا كان القرآن ، وهو لا يتفق مع المكان الأمثل له. وفوق ذلك فان الترجيع الموسيقى يذهب بوقاره وجلاله، وقد سمعت قارئا يقرأ سورة «الحاقة» ، ويختار قراءة كسرما قبل التاء المربوطة ملحناً بها ، فيكون طرب شديد من الناس للحن ، ولكن ذا الاحساس يرى فيه تهزيعاً لقرآن الله العلى الحكيم .

وإن هذا القسم هو البدعة التى ابتدعها الناس ، وهو الذى كرهه الأئمة ، وقال فيه إمام دار الهجرة : « هو غناء يتغنون به ليأخذوا عليه الدراهم » .

فعلى الذين يستأجرون القراء ليقرءوا القرآن متيمنين بقراءته فى أفراحهم ، أو راجين المغفرة بها فى أحزانهم — أن يتحروا السنة ، ويبتعدوا عن البدعة .

والله الموفق . محمد أبو زهرة

كلمات حكيمة

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

ما كانت الدنيا هم رجل قط إلا لزم قلبه أربع خصال :

فقر لا يدرك غناه ، وهم لا ينقضى مداه ، وشغل لا ينفد أولاه ، وأمل لا يبلغ مداه .

وقال رضى الله عنه :

تكثروا من العيال فانكم لا تدرون بمن ترزقون . ما الخمر صرفا بأذهب لعقول الرجال من الطمع . من كتم سره كان الخيار فى يده . لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً .